الفصل الرابع

اللغـة العربيـة

١

عناصر سامية مغرقة في القدم[١]

أشرنا في غير هذا الموضع إلى أن اللغات السامية تتشابه في كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهًا يثبت القرابة بينها، وهو تشابه يقيدنا في معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت في صورتها الأخيرة. وقد ألبى علماء الساميات بلاء مشكورًا في الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والإعراب والأصوات، وهي دراسة تفيدنا فائدة جلى في التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها. فإن لاحظنا تشابهًا بين لغتين من هذه اللغات في ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقي إلى العصر الذي كانت هذه اللغات متحدة فيه. وقد يقع التشابه في الظاهرة في لغتين غير متجاورتين، فإما أن يرجع إلى أصل قديم، وإما أن يكون ثمرة تطور تاريخي في كل منهما أدّى إلى نفس النتيجة، أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فإما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما، وإما أن تكون إحداهما تأثرت الأخرى. ولعل في هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغي حين دروسا الدخيل في عربيتنا، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية، غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامي القديم، فلا يُقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب، بل يقال إنها من الكلمات السامية القديمة التي تداولها الساميون في زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية.

---

(١) راجع في هذه العناصر كتاب "التطور النحوي للغة العربية" لبرجشتراسر (طبع القاهرة ١٩٢٩) والجزء السابع منتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ومحاضرات خليل يحيى نامي بكلية الآداب في جامعة القاهرة.

ونضرب مثالاً آخر أثار شجة واسعة بين المستشرقين، وهو مازعمه فولرز من أن القرآن الكريم كان في بادئ الأمر غير مُعْرب، إذ كان بلهجة قريش الدراجة، وهي لهجة- فيما يزعم- كانت غير معربة، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو والعربية، ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو المعربة. وقد رفض كثير من المسشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأي رفضًا باتًّا[1]، ويقول يوهان فك: "أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضًا على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالاً للشك في إعراب كلماته، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثرًا للشك فيه كذلك، أنظر مثلاً آية ٢٨ من سورة فاطر: (إنما يخشى الله من عباده العلماءُ) وآية ٣ من سورة التوبة: (أن الله برئ من المشركين ورسولهُ) وآية ١٢٤ من سورة البقرة: (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه) وآية ٨ من سورة النساء: (وإذا حضر القسمةَ أولو القربى) فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات... لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حيًّا صحيحًا. يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل آية ١٠٣ من سورة النحل: (وهذا لسان عربي مبين) وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أى قبائل البدو"[2].

ومما يثبت بطلان رأى فولرز أيضًا أنه لم يُعرف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية. وقد نسى أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توقيفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو أنه قرأه على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللهجات المعربة من حوله. وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأي وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدلل على صحته، تارة بما وجده من نصوص متأخرة تحث على مراعاة الإعراب في ترتيل القرآن، وتارة بما يزعمه من أن قراء القرآن الأولين رحلوا لمخالصة عرب البادية، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبقوها على الذكر الحكيم[3]، وهو يستمد في الشطر الثاني

---

(١) أنظر مادة قرآن في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ القرآن لنولدكه وكتاب العربية ليوهان فك ص٣ وما بعدها.

(٢) العربية ليوهان فك ص ٣.

(٣) راجع ما ساقه عبد الحليم النجار من تعليقات في كتاب العربية المذكور.

لقوله وزعمه من فولرز، أما الشطر الأول فواضح البطلان، لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء في عصور اللهجات العامة المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخي، فإن الإعراب في الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفي بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكدية، كما تشترك في بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية. وحدث في سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء في رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشًا كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد في موضع كان يعرف قديمًا باسم أوجريت Ugarit وجدوا في حل رموزها، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة، فسموها باسم موضعها تمييزًا لها، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوجريتية يشيع فيها الأعراب مثل العربية، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف، وكان المظنون أنه خاصة عربية.

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتي الإعراب والمنع من الصرف قديمتان في اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات، فهما ليستامن الظواهر المستجدة، بحيث يمكن أن ينسبا إلى بعض قبائل البدو كما وهم فولرز وكاله، وإنما هما من الظواهر السامية القديمة، وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشًا أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه في لهجتهم الخاصة، بل كان الإعراب عامًّا بينهم جميعًا في الشرق والغرب، وفي الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد، فمن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملاً في لغة قريش، فإن ذلك مجرد حَدْس لا قيمة له.

ومن ظواهر العربية التي أكدت اللغة الأوجريتية أنه قديم ظاهرة التعريف بأل، وهي تقابل حرف الهاء الذي كان يستخدمه العبريون والآراميون في التعريف، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والأخيرون يلحقونه بآخرها. وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجاورون العبريين في استخدام هذا الحرف في التعريف ومثلهم الثموديون واللحيانيون. واستخدم النبط في نقوشهم أل استخدامًا واسعًا، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله واللات والعزى، وقد

تحذف الألف منها في الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لهي وعبد لهي بإشباع الكسرة ومدها بحيث تتولد منها الياء، ويقول اللغويون إن الأزد يشبعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم في العربية. ويدل حذف الألف في مثل هب لهي أن النبط كانوا يسهلون الهمزة ولا يحققونها على نحو ما أثر عن قريش وأهل الحجاز في عدم تحقيق الهمزة لا في أل وحدها بل في كلمات كثيرة، فيقولون في اسأل: سل. وكل لك معناه أن أداة التعريف في العربية قديمة وأن تسهيل الهمزة حدث قبل العصر الجاهلي، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون في غربي الجزيرة مثل النبط الحجازيين.

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل في العربية وصيغه في اللغات السامية وجدنا همزة التعدية في صيغة أفعل العربية تشيع في اللغتين الحبشية والسريانية، بينما تعبر العبرية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء، فهفعل عندهم تقابل أفعل في العربية، وكان اللحيانيون والثموديون يستخدمون الصيغتين جميعًا. وفي الوقت نفسه نجد النقوش اليمنية ما عدا السبئية، ونقصد المعينية والقتبانية والأوسانية والحضرمية تعبر عنه بسفعل، وتعبر عنه الأكدية بشفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين في وزن استفعل، ومن ثم ذهب ليتمان إلى أن أداة التعدية كانت في الأول سينًا، ثم صارت شينًا في الأكدية، وصارت السين هاء عند بعض الساميين، ثم صارت الهاء همزة في العربية والسريانية والحبشية[1]. ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايات من هذه الصيغ جميعًا كصيغة هراق الماء بمعنى أراقه. يقول ابن يعيش: "أعلم أنهم قالوا أهراق فمن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل في أردت ونظائره"[2] وكأنه كان بينهم من يجمع في التعدية بين الهمزة والهاء، ومن يكتفي بإحداهما في مثل هذه الكلمة، ويظهر أن هذا كان كثيرًا إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة، فيقولون هراح في أراح وهنار في أنار وهكذا. وفي القاموس المحيط الهذروف كعصفور: السريع، وهذرف: أسرع. ومعنى ذلك أن بين

---

(١) أنظر مقالة ليتمان عن "بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي" بالجزء الأول من المجلد العاشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص٢٥ وما بعدها.

(٢) شرح المفصل للزمخشري ١٠/ ٥.

الأسماء صيغًا احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها، يقول صاحب القاموس: "الهجزع كدرهم: الجبان لأنه من الجزع".

أما وزن سفعل الذي استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية فإن العربية احتفظت به في صيغة استفعل. وفي المزهر من مزيد الثلاثي هفعل في مثل هلقهم إذا أكبر اللقم وسفعل في مثل سنبس بمعنى نبس[1]. ويمكن ان يرد إلى هذه الصيغة كثير من الفعال التي تبتدئ بالسين، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التي تبتدئ بالهاء، فهدر مثلاً يمكن أن يكون اصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء، وسكن أصلها كان من كان التامة، ثم حذفت الألف. وبهذا القياس يمكن أن ننعم النظر في بعض الكلمات المبدوءة بالشين فنردها إلى صيغة شفعل الأكدية، فشسع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوش من وش وهكذا. وكأن العربية كانت تستخدم في بعض أزمنتها القديمة كل هذه الصيغ، ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعل وآثرتها معرضة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف في النطق وأيسر.

ومن الظواهر التي تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر، إذ نرى مثلاً: أنا تختص بالمتكلم مع زيادة مميزات عددية أو جنسية في بعض اللغات، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل، وقد تخلفها الكاف كما في الأكدية، على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير[2]:

يا بن الزبيـر طالمـا عصيكـا وطالمـا عَنَّيْتنـا إليكـا

فقال عصيك بدلاً من عصيت. وكما تتشابه اللغات السامية في الضمائر تتشابه في اسماء الصلة والإشارة، ويدل الاسم الموصول "ذو" عند الطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت في الأصل أسماء إشارة، وهو في الحبشية "ذ" وفي السريانية "د"، و "دى" في النقوش النبطية. وأيضًا فإن هذه اللغات تتشابه في كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدات الاستفهام وفي الميل إلى المخالفة

(١) المزهر للسيوطي ٢/ ٤٠.

(٢) النوادر في اللغة لأبي زيد (طبعة بيروت) ص١٠٥ وأنساب الأشراف للبلاذري ١١/ ٤٨.

بين الذكر والأنثى رغبة في الازدواج كما يتضح في العدد ومخالفته للمعدود في الجنس وفي تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكر.

وتشترك العربية مع أخواتها السامية في أن الأسماء الثنائية أقدم أسمائها، وفي العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها، وقد أخذت- كأخواتها- تشتق منها الثلاثي وغيره أو تولدهما، ومن أقدم ما أتبعته في ذلك تضعيف الحرف الثاني أو زيادة واو أو ياء في أوله أو زيادة حرف لين في وسطه أو نهايته. وقد تكرر المادة الثنائية مثل حصص وصرصر وسلسل. ولعلماء الساميات أبحاث في الكلمات التي تشترك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتي يمكن أن تعد من أقدم عناصرها، وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنت وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه السماء: ولد وملك. ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وغبل وثور وحمار ونسر وعقرب وذباب ومعها فعل نبح. ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكمون وزرع وسنبلة. ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان وسن وشعر ويد وظفر وركبة وكتف وذنب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم، ومعها سمع وطعم. وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر. ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنبع وبئر، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق ولهب. ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وحبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى. ومن المأكولات والمشروبات قمح ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقلى. وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبل ونقل ونقب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووقر، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة[1].

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم في مثل هذه الكلمات مشكل، فإما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض

(١) راجع في ذلك كله برجشتراسر ص١٤٠ وما بعدها.

الفروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت في زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ما تنفرد به العربية من كلمات لا توجد في أخواتها السامية هو من السامي الأصيل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجشتراسر إلى أن "هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها.. وهذا من الأوهام التي لا سبب لها، فإن اللغة العربية ترقت رقيًا بعيدًا بالقياس إلى أخواتها الساميات.. ولابد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوفًا من الكلمات الجديدة ولا عجب في ذلك بعد ما شاهدناه مرارًا من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة"[1] ويضرب مثلين لذلك: كثرة ما اخترعته في بابل الإبل وأوصافها وشياتها وأمراضها وأدوائها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النفي، إذ تشترك مع اللغات السامية في أداته الأساسية "لا" ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها في أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضافت إلى ذلك أدوات جديدة هي ما وإن وغير، وبذلك عددت وظائف النفي ونوعتها،

ومعنى كل ما قدمنا أن هناك عناصر في العربية ترجع إلى أقدم أزمنتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين[2] بحث فيهما أسماء الأعلام في اللغات السامية متخذًا منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها. ولاحظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخص أمنية أو فرحًا أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية. ومن طريف ما لاحظه أن النبط كانوا يلحقون في كتابتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحيانًا، يقول: والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو في آخرها. وأخذ العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطي فألحقوها بعمرو فرقًا بينه وبين عمرو[3]. وقارن

---

(١) برجشتراسر ص١٤٢.

(٢) أنظر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد العاشر، العدد الثاني، والمجلد الحادي عشر، العدد الأول.

(٣) مجلة كلية الآداب، المجلد العاشر، العدد الثاني ص٤٣.

مقارنات واسعة بين الأعلام في العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية، وأدلى في هذا الصدد بملاحظات جيدة.

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت في نقوش قديمة، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محاولين استخلاص عناصرها وظواهرها المغرقة في القدم، والتي جدَّت على مر التاريخ. وقد لاحظوا أنها هي والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تُكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة، كما لاحظوا أنها هي والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما، ومما يميزها أيضًا حرف الضاد، ولهم كلام كثير فيه وفي مخرجه، وتبادله مع الظاء واللام في بعض الكلمات.

٢

لهجات عربية قديمة[١]

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة، منها ثلاث كُتبت بالخط المسند الجنوبي، وهي اللهجة الثمودية واللِّحْيانية والصَّفوية، وواحدة كتبت بالخط الآرامي، وهي اللهجة النبطية. وقد جاء ذكر ثمود في القرآن الكريم مرارًا، وكانوا ينزلون في مدائن صالح وما حولها، وتمتد عشائرهم غربًا إلى البحر الأحمر وشرقًا إلى جبلي أجا وسلمى، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفي كتابات أشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد. وترجع نقوشهم التي عُثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده، وهي تنتشر في كثير من البلاد، فهي فضلاً عن وجودها في أماكن إقامتهم وسكناهم نجدها مبثوثة في الطائف وطور سيناء ومصر بوادي الحمامات، وربما كان في ذلك ما يدل على أن أهلها كانوا أصحاب تجارة واسعة. ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى، وقليل منها أدعية لآلهتهم، وهي صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبي، مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين، وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد. ومما يزيد في صعوبته أيضًا، أو بعبارة أدق مما يزيد في صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيرًا ما يحذفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من "لي" وأيضًا فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية.

وهذه النقوش مع أنها كُتبت بالخط المسند الجنوبي نقوشٌ للعرب الشماليين، فاللغة التي تعبِّر عنها عربية شمالية، ويتضح ذلك في تراكيبها الصرفية والنحوية وفي اشتقاقات أفعالها وأزمنتها. ونجد عندهم صيغة المثنى بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو. غير أن أداة التعريف الشائعة

---

(١) أنظر في هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ومقالة ليتمان في العدد الثاني من الجزء العاشر بمجلة كليةالآداب، وكذلك مقالته: "لهجات عربية شمالية قبل افسلام" في الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية.

عندهم هي الهاء لا أل، وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين، أما عند النبط فهي أل، ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء، وهم في ذلك يتطابقون مع العبريين، وأيضًا فإنه يشيع عند الثموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثي بالهاء بدلاً من الهمزة، مثلهم في ذلك مثل العبريين والسبئيين، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

واللهجة القديمة الثانية هي اللهجة اللِّحْيانية نسبة إلى منازل أهلها من بني لحيان الذين ذُكروا في نقوشها، وقد عثر عليها علماء الساميات منثورة في شمالي الحجاز بمنطقة العُلا الحالية، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح، ويختلف الباحثون في تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد. وتلقانا في نقوشهم نفس الصعوبات التي تلقانا في نقوش الثموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد. وهم يعرِّفون بالهاء على شاكلة الثموديين، وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية، وقد يجمعون بينهما مثل هلِحمَى بمعنى الحمى. وهم يستبقون بين صيغ الفعل على صيغتي هفعل وسعفل ونراهم يلحقون بالماضي تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال وذه وذات. ومن أسمائهم الموصولة من وما وذو المعروفة في لهجة طيئ. ومن آلهتهم التي يرددون ذكرها بعل والعُزَّى ومناة وود وإلهة. ومن أسمائهم عبد ود وعبد شمس وعبد مَناة وبعيث وعرم طود. ومن ألفاظهم رب ويوم وبيت وحية وشيعة وحرة ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم. وهم يكنون وينسبون على نحو ما نعرف في الفصحى، وأيضًا نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالألف والتاء. ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفي ومن ومع وقبل وبعد وتحت ولدى وخلف، ونراهم ينفون بلا.

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصَّفاة القائم في شرقي حوران ببادية الشام، ولم توجد النقوش به، وإنما وجدت في الحرَّة الواقعة بينه وبين حوران، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلئ بحرات كثيرة، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور، واتخذوه علمًا عليها، وقد عثروا على نقوش منها في مواضع أخرى كالحرة الواقعة في جنوبي دمشق والصالحية على الفرات. وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى

أمكنة بعينها، إنما هي تسمية اصطلاحية. وخطها مشتق من الخط المسند الجنوبي كاللهجتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التي أشرنا إليها، ومما يزيدها صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين.

ونقوشهم قصيرة وشخصية، وقد يضمنونها وثائق تمليك أو أدعية للآلهة، وقد يذكرون تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بصري أو ببعض حروب النبط والروم. وهي تسبق الميلاد وتمتد بعده قرونًا. ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالألف واللام مثل الأوس والعبد. وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شاكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية، فيقولون مثلاً "جبل الأحمر" بدلاً من الجبل الأحمر، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا بتقدمه فيقولون أو يكتبون "جو، ذ" أى هذا الوادي، بالضبط كما نصنع في عاميتنا المصرية فتقول "النهاردا" بدلاً من هذا النهار. وتلقانا عندهم ذو الطائية التي تُسْتخدم اسمًا موصولاً في مثالها المشهور "بئري ذو حفرت وذو طويت" أي الذي حفرت والذي طويت.

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء في الضمائر واستخدام العدد أو في أسماء الأعلام وصيغ الفعل، فنحن لا نجد عندهم هفعل، بينما نجد الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول، وهي تتشابه مع العربية الفصحى في تصريف الفعال ومصادرها ففعّل مصدره تفعيل أو تفعله وفاعل مصدره فعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعال وهلم جرًا. ونراها تدخل تاء التأنيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث، وتشيع فيها أدوات الجر المعروفة في العربية الفصيحة، وتعطف بالواو والفاء، وتنادي بها وبيا. والحروف جميعها هي نفس حروف عربيتنا عددًا، ويشيع تسهيل الهمزة فيها،وخاصة في أول الكلمة فعندهم ونس بدلاً من أنس وودم بدلاً من أدم. وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلاً من غشاح. ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلاً من آكل على نحو ما نصنع في لهجاتنا العربية المعاصرة، وهم لا يدغمون الحرف الثاني مع الثالث في الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن، بالضبط كما ننطق في عاميتنا مادد بدلاً من ماد. ومن

أفعالهم المنقوصة التي احتفظت بها العربية: شتى وبني وأتى ونجا ورعى ودعى، ودائمًا لام الفعل الناقص عندهم ياء. ومن العبارات التي وردت فيها هذه الأفعال: "نجى من هلسطان" أى نجى من السلطان و"رعى هضأن" أى رعى الضأن ،"هأبل" أى الإبل و"همعز" أى المعز و"هبقر" أى البقر. وفي نقش من نقوشهم "ورعى هأبل سنة مرق نبط جوذ" أى رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادى. ومعنى كلمة مرق في النقش مر، وهي تستخدم بنفس هذا المعنى في لهجاتنا المصرية. ومن آلهتهم رضا واللات ومناة وبعل وشيع هقوم أي شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط، قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابدوه.

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصفويين وأبناء عمومتهم الثموديين واللحيانيين لأمكن الحكم بدقة على لهجاتهم جميعًا، في صورة واضحة، ومن المؤكد أنها تصور ضروبًا من نمو العربية وتطورها في طريق اكتمالها، ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعًا تنتهي بالقرن الثالث الميلادي. وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا في شمالي الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سلع (بطرا- Petra) حاضرتها الكبرى، وموقعها الآن وادي موسى في جنوبي فلسطين. وكان لهم في الجنوب حاضرة صغرى هي ثانية هي بُصْرى بحوران في الشام. وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦م، كما قدمنا، إذ قوَّضها الرومان، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية في تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشى الرومان من اتساع سلطان أمرائها، فحاربوا ملكتها زنوبيًا، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميرًا. وبذلك ينتهي تاريخ النبط، ويظهر أنهم لعبوا دورًا واسعًا في التجارة، فقد كانت قوافلهم تتسلم العُروض من عرب الجنوب ومن الثموديين واللحيانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط.

والنبط عرب شماليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية في أحاديثهم اليومية، غير أنهم اختلطوا بالآراميين، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت في نقوشهم آثار آرامية كثيرة، إذ نراهم يستعيرون منهم بعض كلماتهم وقد يبقون في خطهم على بعض خصائص لغتهم. وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين، فظهرت في نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم، يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا في إمارتهم.

وتمتد نقوش النبط في الأنحاء التي سيطروا عليها، وقد كتبوها بالخط الآرامي المشتق من الخط الفينيقي، وهي منثورة في الحجر ووادي موسى وتيماء وشرقي الأردن وسناء وحوران بصري ودمشق وصيدا وجبل الدروز، وتنتهي بالقرن الثالث الميلادي مثلها مثل النقوش السابقة. وكثير منها عثر عليه علماء الساميات في القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور، وهي تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لآلهتهم، وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم، وكثيرًا ما يؤرخونها بالسنة التي انتهت فيها دولتهم الأولى وهي سنة ١٠٦.

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافًا واضحًا عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والثموديين والصفويين في استخدامهم لأداة التعريف العربية، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء في التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدم أل المعروفة في فصحانا، على أنهم قد يجارون الآراميين في تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف في نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر "قبرا" والمسجد "مسجدًا" ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية "أل". وربما صنعوا ذلك في كتابتهم فحسب، مجاراة للآراميين الذين أخذوا منهم خطهم وأبجديتهم، أما في حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوعها في كتابهم. وقد ميزوا في نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام الممنوعة من الصرف والمصروفة فكانوا يضيفون للأخيرة واوًا دلالة على تنوينها، مما بقيت آثاره في الخط العربي في مثل عمرو وعمر.

وهاتان الظاهرتان: أي استخدام أل في التعريف والواو في آخر الأعلام المصروفة يقرب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية. ومما يلاحظ أنهم يكتفون أحيانًا في كتابة أل باللام وحدها فيقولون أو يكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعلى بحذف الألف، وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع. وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقًا شديدة الصلة باللغة الجاهلية، فهي لا تكاد تفترق عنها في أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن في التذكير والتأنيث للاسم والفعل. ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جل وعز. وتدور في نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذر ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورءوف وسعود ومرأة وأمة وعبد ورب وسعد، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بنى مثل آل قصي وبنى سهم.

واستخرج ليتمان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهي مدونة في كتابة: (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين، أمة، أمة الله، أوس، إياس، أوس الله، أوس البعل، بدر، بكر، تيم، تيم الله، تيم ذوشرا (يعنى عبد ذي الشرا) جذيمة، جرم، جمل، حجر، حارث، حارثة، حنظل، حيان، رجب، زيد، سبع، سعد، سلم، مسلم، سكينة، سمية، أسود، صعب، عدى، عقرب، على، عمر، عمير، عميرة، عياض، غالب، غانم، غوث، مغير، فهر، قصي، كعب، لخم، مجد، امرؤ الله، امرؤ القيس، معن، مالك، نصر، نزار، نعيمة، نقيب، تنوخ، هانئ، وائل، وحش، ورد، وهب، وهبان، وهب الله.

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية، وهو طور قريب منها قربًا شديدًا. ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطورًا سريعًا في القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطي مشتقين منه خطهم العربي على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

٣

نشـوء الفصحـى

ليس من السهل تحديد الزمن الذي اتخذتْ فيه لغتنا العربية شكلها النهائي الذي تصوره الفصحى الجاهلية، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنويع الواسع في الجموع والمصادر وحروف العطف وأدوات الاستثناء والنفي والتعريف والتنكير والانتهاء بالممنوع من الصرف إلى نظام تام منضبط مضافًا إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها لغة سامية احتفاظًا كاملاً، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين.

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو والتطور، وقد راينا نماذج منها في نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند الجنوبي، وهي نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين، ونقوش أخرى كتبت بأبجدية الآراميين، وهي نقوش النبطيين، غير أنها جميعًا لا تصور هذا التكامل الذي انتهت إليه الفصحى، والذي تمثله نصوص العصر الجاهلي منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، وأوائل السادس، فهل تم لها ذلك التشكل النهائي مع ظهور الشعر الجاهلي أو أن ذلك تم في حقب أبعد منه؟

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة، لسبب بسيط أو طبيعي، وهو أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة، نستطيع أن نعرف منها بالضبط الزمن الذي يعد بدءًا حقيقيًّا للفصحى. وحقًا عثر علماء الساميات كما قدمنا في غير هذا الموضع على نقش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادي إلى القرن السادس، غير أنها قليلة، ثم هي قصيرة، وأكثرها في أمور شخصية، وليس بينها نص أدبي أو نص طويل يمكن أن نتبين في تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التي كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم، وهي تخلو خلوًّا تامًّا من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الأعراب.

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقترب اقترابًا شديدًا من فصحانا، وقد وقفنا في الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش النمارة المؤرخ بنسبة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وهو لامرئ القيس ثاني ملوك الحيرة، وضع على قبره في النمارة شرقي جبل الدروز، وقد لاحظنا أن كتابه استخدم كلمة بر الآرامية بدلاً من ابن العربية، غير أن النقش بعد ذلك تام في عروبته سواء من حيث الأسماء والأفعال، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل. وأيضًا فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطي يُعد مقدمة للخط العربي. إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلاً أكثر استدارة.

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بَدْءًا لتكون الفصحى، وقد لُقِّب امرؤ القيس فيه بلقب ملك العرب، وهي أول مرة نعثر فيها على هذا اللقب، وقد يكون في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون في إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ، وكانوا قبله لا يفكرون في هذه الوحدة ولا في أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية.

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزًا لإحساسهم إحساسًا عميقًا بوجوب اتحادهم إزاء الدول التي كانت تناهضهم في الشماليين الغربي والشرقي، ونقصد دولتي الروم والفرس، فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط في سلع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم، وبالمثل فرض الفرس سيادتهم على الحيرة وقبائل العراق. وهذا في الشمال، أما في الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها في أوسط القرن الرابع لمدة عشرين عامًا، وعادوا في سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها.

والذي لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون في الشمال والجنوب، وليس ذلك فحسب، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم. وكان هذا كله حافزًا لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم، فنمت شخصيتهم السياسية، وأخذوا يكونون لهم إمارات مختلفة في الشمال، يتجمعون حولها، والتفت قلوبهم وأهواؤهم حول مكة بيت أصنامهم كعبتهم الكبري. وفي هذه

الثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا إخوانهم اليمنيين في مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش، وكان اليمنيون يرحِّبون بهم، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة.

وليس هذا كل ملا نلاحظه، فنحن نلاحظ أيضًا أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة، فلم يعد بيد اليمنيين المهددين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهددين بالروم، وإنما اصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين، وربما كانوا يرجعون في أصولهم إلى النبط، وكأنما هبطوا إليها بعيدًا عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم. والمظنون أن الثموديين هبطوا بدورهم إلى الطائف، أما اللحيانيون فسقطوا إلى منازل هذيل.

وفي هذه الثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نموًا سريعًا، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو في سرعة، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد. وزبد خربة بين قنسرين ونهر الفرات، ونقشها مكتوب بثلاث لغات: العربية واليونانية والسريانية، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربي الجاهلي تتكامل فيه. ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة في الحقبة الممتدة بينه وبين نقش النمارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية. وعلى مثاله نقش حران اللجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد، وقد وُجد على باب معبد بنوه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق، وجميع كلماته وعباراته عربية، وهو يمضي على هذا النحو:

"أنا شرحيل (شرحبيل) بر (بن) ظلموا (ظالم) بنيت ذا المرطول (المعبد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خيبر بعم (بعام) ". وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيبر، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقًا لقواعد النبط في كتابة أعلامهم المنصرفة، وحذف حرف العلة من كلمة "عام" وهي نفس الصورة المألوفة في الأقلام الإسلامية الأولى.

ونرى من ذلك أن الخط العربي تكامل مع أوائل القرن السادس كما تاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائي بشهادة نصوص الشعر الجاهلي التي يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس، فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة، هي الفصحى، ينظم بها شعراء العرب جميعًا شعرهم. وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها، تلك التي عاشت في الشمال، فقد حملتها إلى الجنوب القبائل

التي تسقط فيه، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوي الشمالي، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزد في جنوبي الحجاز.

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية في الجنوب، ولسنا نريد أن نبالغ في هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب، أما في داخل اليمن وفي ظفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم. ونستطيع الآن أن نفهم قول أبي عمرو بن العلاء: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا"[1]. فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخليين ومن يجرى مجراهم هو الذي يخالف لسان العرب الشماليين. بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخليين أنفسهم أخذوا في التعرب، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التي دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب[2]. يلاحظ توًا تقاربًا في الكلمات أسماء وأفعالاً من اللغة الشمالية، وحقًا تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية، لكننا نجد في تضاعيفها صيغًا تشبه الصيغ العربية شبهًا تامًّا، من مثل: "كن لهو خلفتن وقسد" أى ان له خليفة وقاسد، وكلمة قاسد معناها قائد في اللغة الجنوبية.

فنحن لا نصل إلى العصر الجاهلي الذي نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها، وأخذت تغزو العربية الجنوبية، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قربًا وبعدًا، فهي في الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحًا، وهي في الجهات البعيدة تؤثر تأثيرًا يختلف قوة وضعفًا. على أنه ينبغي أن نتعرف بأن اليمنيين كانوا في نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم، أما في حياتهم اليومية وخاصة في أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعربيتنا الفصحى.

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص١١.

(٢) أنظر هذه الوثيقة في الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراق وتعليق جواد على عليها.

لهجـات جاهليـة[١]

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة في العصر الجاهلي كانت هناك لهجـات كثـيرة تميـزت بهـا بعض القبائل، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثـاني للهجـرة، فسجَّلها اللغويـون، غير أنهم لم يعنوا غالبًا بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانـت تهمهـم الـصحة اللغويـة مـن حيث هي، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغـة الأدبيـة العامـة التـي نـزل بلـسانها القـرآن الكريم. ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحيانًا على القبيلة التي تنطق اللهجة الشاذة، ولكنهم لم يعممـوا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التي كانت تنطق بها إلا في الندرة والحين بعـد الحـين، فمـن ذلـك الكشكـشة والكسكـسة، وهمـا تخصان ضمير المخاطبة، إذ كان بعض تميم وأسد، وقيل أيضًا بعـض بنـي ربيعـة يلحقـون بكـاف المخاطبة شينًا في الوقف، وفي الوصل أحيانًا، فيقولون: رأيتكش وعليكش وبكش وكانـت بعـض قبائل ربيعة تلحق السين بدل الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكـس، وكـان مـنهم مـن يحـذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين.

ومن ذلك العنعنة، وهي في تميم وبعض قيس وأسد، إذ يجعلون الهمزة عينًا في بعض الكلمات، فيلفظون استعدي بدلاً من أستاذي، ويلفظون أعدي بدلاً من آدي، ويقال إن بعض بني طيئ كان يقول دأني عوضًا عن دعني. وكان هناك من يلفظ لعل لأن، بإبدال اللام أيضًا نونـًا، وقـالوا بـدلاً من أنْ وأنَّ عنْ وعنَّ.

وتقرب من العنعنة الفحفحة، وكانت في هُذَيْل إذ تبدل الحاء عينًا، ويقال إن بني ثقيف كـانوا يصنعون صنيع الهذليين في ذلك فيقولون في حتى عتـى. وهـذه اللهجـات جميعًـا كانـت تـشيع في

(١) أنظر في هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطي في مواضع متفرقة وكتاب الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليتهان بمجلة كلية الآداب بجامعـة القـاهرة، المجلـد العـاشر، العـدد الأول وكتـاب Ancient West-Arabian لرابين.

بعض القبائل الشمالية المضرية، ومثلها التضجع وهو الإمالة، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يميلون. ويظهر أن ذلك لم يكن عامًا في القبيلة الواحدة، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل، يقول سيبويه: "أعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينْصِبُ بعضٌ ما يُميل صاحبه، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبه. وكذلك منكان النصب في لغته لا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربيًّا كذلك فلا ترينه خلَّط في لغته ولن هذا من أمرهم". ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التي حكيناها، فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر في قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافًا في الكشكشة مثلاً هل كانت في تميم أو كانت في بكر أو كانت في قيس أو كانت فيهم جميعًا، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لاحظه سيبويه في الإمالة من أن عشيرة أو أفرادًا في قبيلة تميل قد لا تميل، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث في اللهجات الشاذة التي رويت عن بعض القبائل المضرية.

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضرية وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار في يثرب تبدل العين نونًا في مثل أعطيى فتقول أنطى، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالاً كما لاحظ ليتمان، وإنما هما فعلان مختلفان.

وهناك لهجات نسبها اللغويون إلى القحطانيين، من ذلك التلتلة في قُضاعة وبَهْراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون: تِعلمون وتِكتبون وتِنجحون كما نصنع في عاميتنا المصرية. ومن ذلك العجعجة في قضاعة إذ يجعلون الياء المشددة جيمًا، فيقولون تميمج في تميمي، وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيمًا وجد عند بني تميم، وقال الزمخشري إن بني حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيمًا مشددة.

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم، وهو كسر الهاء في ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون: منِهم وعنِهم وبينِهم. وسُمع عن قوم منهم ما سمي بالوكم إذ

يكسرون الكاف في ضمير المخاطبين إذا سبقها اء أو كسرة، فيقولون: عليكم وبكم بكسر الكـاف فيهما. واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيئ بالطمطمانية، وهي إبدال لام التعريف ميمًا، فيقولون في السهم والبر والصيام: امسهم، وامبر، وامصيام، وهذا ليس إبـدالاً، وإنـما هـي لهجـة يمنية، إذ كانوا يعرِّفون بالألف والميم، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون مـن أن طيئ قبيلة يمنية، ولا تزال لذلك بقية في عاميتنا المصرية إذ نقول بدلاً من البارحة إمبارح وأول امبارح. ومما ينسب إلى بعض القبائـل اليمنيـة الشِّنْشنة إذ يجعلـون كـاف الخطـاب شـينًا مطلقًـا، فيقولون بدلاً من لبيك اللهم لبيك لبيش اللهم لبيش، وهم في ذلك يلتقون بأصحاب الكشكـشة في بعض وجوهها من المضريين. وينسب إلى بعض الحميريـين أنهـم كـانوا يجعلـون الـسين تـاء في بعض الكلمات فيقولون: النات بدل الناس. ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم:

يا قبَّـح الله بنـي السِّعـلات عمرو بن يربوعٍ شـرار النـاتِ

ليسـوا أَعِفَّـاءَ ولا أَكيـاتِ

وواضح أنه استعمل النات بدل الناء والأكيات بـدل الأكيـاس. عـلى أن هـذا الـشاعر لـيس حميريًّا وإنما هو من بكر، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويِّها.

وفي كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التي كانت تنفرد بها بعض القبائـل، وقـد عقـد السيوطي في المزهر فصلاً لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين، ويمكن أن نمد هذا الفـصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافات لغوية.

ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولـين كانـا يحققـون الهمزة وكان الثانون يسهِّلونها فمثل سأل يسأل سؤالاً عند الأولين يقابل سـال يـسل سـؤالاً عنـد الثانين، ومثل رثأت وعباءة ونبيء عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبـى عنـد الثـانين. ويظهـر أن ذلك لم يكن يطرد في كل الكلمات ولا على جميع الألسنة في الجانبين المتقابلين مـن الجزيـرة. وكـان التميميون يدعمون الحرف الثاني في الثالث في أمر مثل رد، بينـما كـان يفـك الحجـازيون الإدغـام فيقولون: أرْدُدْ، وهذه أيضًا فيها نظن انت مسألة حِسٍّ، فكـان بـين الفـريقين مـن يجـاري الفريـق الآخر. ومما اشتهر بينهما من فروق إهمالُ ما عنـد التميميـين في نحـو مـا زيـد قـائم وإعمالهـا عنـد

الحجازيين فيقولون ما زيد قائمًا، ومن ذلك أيضًا أن الحجازيين كانوا يجرون "هلم" مجرى أسماء الأفعال مثل صه، فيلزمونها طريقًا واحدًا في مخاطبة المفرد والمفردة والاثنين والاثنتين والجماعتين، فيقولون: هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء، أما التميميون فكانوا يجرونها مجرى الأفعال، فيقولون: هلم وهلمي وهلما وهلموا وهلممن يا نسوة، وبلغة الحجازيين نزل القرآن الكريم في قوله تعالى: "والقائلين لإخوانهم هلم إلينا". ومن ذلك أمس عند الحجازيين فإنها تلزم البناء على الكسر، أما التميميون فكانوا يقولون أمسُ في الرفع وأمسَ بفتح السين في الجر والنصب. ومن ذلك هيات فإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيات، وروى فيها الإعراب بالحركات. ومن ذلك تنوين الترنم في قوافي الشعر، فقد كان الحجازيون يطلقون القافية، ليفرقوا بين الشعر الذي يغنَّي والكلام المنثور، وكان التميميون يبدلون المد في القافية نونًا، على نحو ما عرف عن جرير في قصيدته:

أَقِلِّي اللوم عاذل والعِتابَنْ وقولي إِن أَصبتُ لقد أَصابَنْ

فقد أبدل المدَّ نونًا في "العتابن" و"أصابن" وهو يحذف في لغة الحجازيين، فيصبح البيت على هذا النمط:

أَقلي اللوم عاذل والعتابا وقولي إِن أَصبتُ لقد أَصابا

وروى اللغويون كثيرًا من اختلاف الفريقين في همس الحركات والجهر بها ومدها، فبينما يمد الحجازيون الألف في مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب، وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون: ندَهُ، وبذلك ننطق في عاميتنا المصرية، ويقول الحجازيون خمس عشرةَ بتسكين الشين وتميم تفتحها، ومنهم من يكسرها ومن يثقلها، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها، ويقول الحجازيون مرية بكسر الميم ويقول التميميون مرية بضمها، ويقول الحجازيون الحج بكسر الحاء ويقول التميميون الحج بفتحها، ويقول الحجازيون تخذت ووخذت ويقول التميميون اتخذت، ويقول الحجازيون قلنسية بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو، ويقول الحجازيون ينقد الدراهم ويقول التميميون ينتقد، ويقول الحجازيون القير ويقول

التميميون القار، ويقول الحجازيون الكراهة، ويقول التميميون الكراهية، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة (مصحية) ويقول التميميون إضحيانة، ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء في الفعل ويقول التميميون برئت بكسرها، ويقول الحجازيون أنا منكَ براء، ويقول التميميون برئ، ويقول الحجازيون قلوت القمح وأقلوه ويقول التميميون قليته وأقليه قلي، ويقول الحجازيون لي بك إسوة وقدوة بكسر أولها ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم، ويقول الحجازيون: الشفع والوتر بفتح الواو في الوتر، ويكسرها التميميون فيقولون الوتر، ويقول الحجازيون وكدت والتميميون أكدت.

ولعل خير مرجع يصور الاختلافات بين الفريقين هو قراءات القرآن الكريم، فمثلاً في قوله تعالى: (فنظرة إلى ميسرة) قرأ الجمهور نظرة بكسر الظاء وهي لغة قريش، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الظاء وهي لغة تميم، وقال جل ذكره: (ورضوان من الله أكبر) وقرئت رضوان بكسر الراء وهي لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهي لغة تميم وبكر، وقال تبارك وتعالى: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالي) وقرأ الجمهور كسالي بضم الكاف وهي لغة الحجازيين، وقرأها الأعرج بالكسر وهي لغة تميم وأسد، وقال: (وليجدوا فيكم غلظة) وقرأ الجمهور غلظة بكسر الغين وهي لغة الحجازيين، وقرأها السلمى وأبو حَيْوة بالضمة، وهي لغة تميم، وقال: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما) وقرأ الجمهور يستحي ببياءين، وهي لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحي بياء واحدة، وهي لغة تميم، وقال: (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل) وقرئت الرسل بتسكين السين وهي لغة الحجازيين، وقرئت بضمها وهي لغة التميميين، وقال: (وإن أحصرتم فما استيسر من الهدي) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء، وهي لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الياء، وهي لغة تميم، وقال: (وآتوا حقه يوم حَصاده) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهي لغة الحجازيين وبفتحها وهي لغة تميم وقيس، وقال تبارك وتعالى: (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطًا أممًا) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهي لغة الحجازيين وقرئت بكسرها وهي حدي لغات تميم فيها كما قدمنا.

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل، فقد قالوا إن بني مازن كانوا يبدلون من الباء

ميمًا، فيقولون: باسمك بدلاً من ما اسمك، ويقولون بكة بدلاً من مكة والبوباة بدلاً من الموماة وهي الفلاة، ويقال إن اطبأن بدلاً من اطمأن لغة في بني أسد. ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع في كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصًّا ببعض الكلمات. ويقال إن بعض بني تميم كان ينطق أثاثي بدلاً من أثافي جمع أثفية، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم، فقلبت الفاء فيها أولاً ثاء ثم أصبحت مع الزمن تاء تخفيفًا. ويُقال إن بني عبد القيس في البحرين كانوا يقولون رنز بدلاً من رز وأرز، كما كانوا يقولون إنجاص في إجاص، ويقال إن بعض بني تميم كانوا يقولون في أفلت أفلط بالطاء، ويقال إن قريشًا كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار في يثرب يقولون التابوه، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون تاء الجمع المؤنث هاء في الوقف فيقولون البناه والأخواه في البنات والأخوات. ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون دكر في ذكر، على نحو ما نعرف في عاميتنا، ويقال أيضًا إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صادًا في مثل سوق وساق، وفي عاميتنا راص بمعنى رأس. وتتبادل الضاد والظاء في كثير من الكلمات، ففي لغة تميم فاضت نفسه، وفي لغة الحجازيين والقيسيين والطائيين فاظت نفسه بالظاء. ومن هذه اللهجات أن طيئًا كانت تفتح الفعل اليائي في مثل بقى ورضى فتقول بَقىَ ورضى، وكانوا يقولون في مثل توصية وجارية وناصية مما ياؤه مفتوحة توصاة وجاراة وناصاة. وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعم بكسر العين بدلاً من نعم وأنها كانت تكسر الباء في ابن فتقول ابِن، وأنها كانت تقول إشاح في مثل وشاح، ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عينًا في مثل حتى، فتقول عتى، وأنها كانت تقول في مثل أعطى أنطى، وكانت تقلب الألف ياء في مثل عصاي وهواي وفتاي فتقول عصى وهوى وفتى وكانت تنطق مثل قال وباع إذ بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واوًا، وكانت لا تشبع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء في بعض القراءات: (والليل إذا يسر) بدون ياء.

وقد عقد أحمد بن فارس في كتابه (الصاحبي) فصلاً حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب، فقال: "اختلاف لغات العرب من وجوه: أحدها الاختلاف في الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها، قال الفراء هي مفتوحة في لغة قريش وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون. ووجه آخر: الاختلاف في الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها. ووجه آخر،

هو الاختلاف في إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك.. ومنها قولهم أن زيدًا وعن زيدًا. ومن ذلك الاختلاف في الهمز والتليين نحو مستهزئون ومستهزون. ومنها الاختلاف في التقديم والتأخير نحو صاعقة (في فغة الحجازيين) وصاقعة (في لغة التميميين). ومنها الاختلاف في الحذف والإثبات نحو استحييت واستحيت وصددت وأصددت. ومنها الاختلاف في الحرف الصحيح يبقدل حرفًا معتلاً نحو أما زيد وأيما زيد. ومنها الاختلاف في الإمالة والتفخيم في مثل قضى ورمى، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل. ومنها الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله، فمنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول: (اشتروا الضلالة) و (اشترو الضلالة). ومنها الاختلاف في التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل، ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل. ومنها الاختلاف في الإدغام نحو مهتدون ومهدّون. ومنها الاختلاف في الإعراب نحو ما زيد قائمًا وما زيد قائم، وإن هذين وإن هذان، وهذان بالألف دائمًا لغة لنبي الحارث بن كعب.. ومنها الاختلاف في صورة الجمع نحو اسرى وأساري. ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عُفي له بتسكين الفاء وكسرها. ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمة وهذه أمت. ومنها الاختلاف في الزيادة نحو أنظر وأنظور" وقال ابن فارس إنه "يقع في الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحصاء بكسر الحاء وفتحها، ويقع في الكلمة ثلاث لغات نحو الزجاج والزجاج والزجاج بضم الزاى وفتحها وكسرها، ويقع في الكلمة أربع لغات... ويكون فيها خمس لغات نحو الشَّمال والشَّمَل والشَّمْل والشَّمْأل والشَّيْمل. ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرها وبإبدال السين صادًا مع ضم القاف وقُسْتاط وقِسَّاط وقُسَّاط.

ووراء هذه الاختلافات في نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير في التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثيرة المترادفات في العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبُرّ، قال الجاحظ في البيان والتبيين: "القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية" ويقول المفسرون في تفسير قوله تبارك وتعالى: (وفومها) الفوم هو الحنطة. وكما يكون الترادف في الأسماء يكون في الأفعال مثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا. وكثيرًا ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم في حذف بعض الحروف وأو إبدال بعضها ببعض مثل جدث

وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وتابوه وثابوت ومثل ادكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط، ومثل لثام ولفام في لغة ومثل سجعت الحمامة وسجحت بالحاء ومثل حظوة وحظة في لغة.

والترادف في العربية كثير كثرة مفرطة، وهو يُرَدُّ في جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعاني الحسية والذهنية من أسماء وأفعال، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربي اتساعًا شديدًا، وهو في حقيقته معجم عدة لهجات، نُظمت في سلك واحد هو العربية، وحقًّا ميَّز اللغويون في مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادر والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا في ذلك شواهد احتفظ السيوطي في المزهر بكثير منها، ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعًا. وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلاً ويقولون إنها خمسون، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير، وأمدتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا ينفد أو بعبارة أدق لا يكاد ينفد في ذلك كله. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجاري العربية في هذا الباب: باب الترادف، فهو باب واسع فيها، وقد أعدها ليشيع فيها أسلوب من التكرار الصوتي والترادف الموسيقى عند الجاحظ وأضرابه.

ومما يرجع أيضًا إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعدده باب الأضداد، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب، بل بمعنى مضاد يناقضه، مثل جلل بمعنى عظيم فإننا نجد المعاجم تنص على أنها تأتي بمعنى حقير، ومن ذلك الجَوْن يوصف به السود والأبيض ويدلّ عليهما، ومثله البسل بمعنى الحلال والحرام. وعلى شاكلة التضاد في الأسماء قد يكون التضاد في الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذي نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذي يضاده. وتكثر الأضداد لنفس السبب الذي كثرت من أجله المترادفات، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثًا وكتبًا مثل كتاب الأضداد لابن الأنباري. ونحن إنما نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به، فإن اللغويين وسعوا مفهوم الضد، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة في المعنى مثل ناء بمعنى حمل، وبمعنى حمل بمشقة، وأيضًا فإنهم أدخلوا في الأضداد ما نشأ عن المجاز والاستعارة، كاستخدام العرب كلمة السليم للملدوغ بأفعى تفاؤلاً. فهذا ونحوه لا يُعَدّ من الأضداد بمفهومها اللغوى الدقيق، إنما

الذي يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصريم بمعنى الليل والصبح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع ولحفرة السد. ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا في الجزيرة متباعدين، فقد تطلق قبيلة كلمة على مسمى، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقًا ومحض مصادفة، قال أبو عبيد في باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف: سمعت أبا زيد بن أوس الأنصاري يقول: "السُّدْفة في لغة تميم الظلمة والسدفة في لغة قيس الضوء.. ولمقت الشيء ألمقه لمقًا إذا كتبته في لغة بني عقيل وسائر قيس يقولون لمقته بمعنى محوته"[1]. وعن ابن رديد: "خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة إذى ذي جَدن (من أقيال حمير) فأطلع إلى سطح، والملك عليه، فلما رآه الملك اختبره، فقال له: ثب أى اقعد، فقال: ليعلم الملك أني سامع مطيع، ثم وثب من السطح. قال الملك: ما شأنه؟ فقالوا له: أبيت اللَّعْن! إن الوثب في كلام نزار الطفر (القفز) فقال الملك: ليست عربيتنا كعربيتهم"[2]. ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب، بل كان أيضًا في كثير من الكلمات التي كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها.

ولا نريد أن نمضي في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر من ذلك، لسبب طبيعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف معدودة، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في الجاهلية لهجات كثيرة، سجل منها اللغويون أطرافًا، ومن غير شك لم يسجلوها جميعًا لأنها لم تكن تعنيهم في حد ذاتها، إنما كان يعنيهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التي نظم بها الشعر الجاهلي ونزل بها القرآن الكريم، ومن أجل ذلكلم ينصوا في أكثر الأحوال على القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة، وأيضًا فإنهم مع نصهم أحيانًا على القبيلة لا نستطيع أن نتبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصًا ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها. ولعل في هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التي جمعها اللغويون تظل غير واضحة ويظل المجال واسعًا فيها للظن

---

(١) المزهر ١/ ٣٨٩.

(٢) المزهر ١/ ٣٩٦.

والتخمين، وخاصة حين نحاول أن نضع حدودًا للهجة قبيلة بعينها كلهجة تميم أو لهجة هذيل. ونفس القدماء اضطربوا في نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل، فتارة يجعلونه لتميم أو لعشيرة تميمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية، واخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة يمنية، وقد يُشْركون بين قبائل متباعدة في الظاهرة اللغوية الواحدة.

٥

سيـادة اللهجـة القرشيـة

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم، فالشعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً جدًا.

وقد اختلفت آراء[١] المستشرقين في هذه اللهجة التي كان الشعراء يتخذونها لغة شعرهم، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات في الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات، كانت قليلة، وقد تركبت منها جميعًا هذه اللهجة الفصحى. وتبعه جويدي يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها، إنما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم. وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل. وذهب نالينو إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر والتي جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم، وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي. وفي رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية، وتهذبت في زمن مملكة كندة، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب. ويرى هارتمان وفولرز يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة، ليصل إلى رأيه الذي سبق أن دحضناه، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية، ثم كُتب بعد ذلك بالأسلوب الفصيح. وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن إذتها جميعًا[٢].

---

(١) راجع في هذه الآراء مقالة جواد على عن لهجات العرب قبل افسلام في كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (نـشر مكتبة النهضة في القاهرة).

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١/ ٤٢.

وعلى ضوء من رأيي نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدودًا لهذه اللهجة الأدبية معتمدًا على القبائل التي كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم، وهي تميم وقيس وأسد وهذيل وعليا هوزان وبعض العشائر الكنانية والطائية، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطَّين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مة متجهًا شرقًا إلى الخليج العربي في البحرين ويمتد ثانيهما في الشمال من ضواحي يثرب إلى شمال الحيرة. وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن معًا وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر، وهي لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية، ولم يبين لنا هذه اللهجة التي تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميها، ومضى يشكك في أن تكون لهجة قريش هي التي حققت لنفسها هذا التسامي[1].

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحَدْس، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها الذكر الحكيم، يقول أبو نصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعًا وأبينها إبانة عما في النفس"[2]. ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن أبي عبيد الله: "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشًا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدًا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشًا قُطان حرمه وجيران بيته الحرام، وولاته، فكانت وفود العرب من حُجَّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم.. وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم لا عجرفية[3]. قيس ولا

---

(١) أنظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير ١/ ٧٧ وما بعدها.

(٢) المزهر للسيوطي ١/ ٢١١.

(٣) العجرفية: التقعر وطلب الغريب الوحشي من الكلام.

كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة"[1]. ويقول ابن خلدون "كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم" فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم "حتى إن سائر العرب على نسبة بُعْدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[2].

وفي رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق في الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عين اللهجة القرشية، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لابد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغاتها المحلية. وما تزال اللغة الأدبية في الذيوع، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التي تستخدم في الحياة اليومية العملية.

ونحن إذا طلبنا سببًا لتفوق لغة قبيلة في نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين، بينما إذا طلبنا ذلك في قريش وجدنا أسبابًا كثيرة تعين عليه، فقد كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة.

ومعنى ذلك أن هناك أسبابًا دينية واقتصادية أعدت لهجةَ مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني، فتجمعت قلوبها حول مكة، وهوت أفئدتها إليها. وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم. وقد تدل على ذلك بعض

---

(١) أنظر الصاحبي في فقه اللغة (طبعة المؤيد) ص٢٣.

(٢) راجع الفصل الثاني والثلاثين من القسم السادس في مقدمة ابن خلدون ص٤٠٩.

الدلالة سوقُها عكاظ، فقد كانت سوقًا أدبية كما كانت سوقًا تجارية، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم،ولم يُرْوَ ذلك عن سوق سواها، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب "كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه منها كان مردودًا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي، فأنشدهم قصيدته: "هل ما علمت وما استودعت مكتوم" فقالوا: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته: "طحابك قلب في الحسان طروب" فقالوا: هاتان سمطا الدهر"[1].

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغربًا وشرقًا، وفي اليمامة والبحرين، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران. ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه، وأيضًا فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثًا. وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام.

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة. أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك في رأيي إنما هو تفسير منهم للحديث النبوي: "أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسَّر منه" فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها كثيرة، فاختاروا منها سبعًا هي أفصحها،

---

(١) أغاني (ساسي) ٢١/ ١١٢.

وهي التي كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة، وقد اختلفوا في بعضها. وفي رأينا أن الحديث لا يراد به تخصيص، وإنما يراد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مد وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهيلاً عليهم وتيسيرًا حتى لا يجدوا مشقة وثقلاً في نطق بعض ألفاظه. وروى الرواة عن أبي حاتم السجستاني أنه قال في كتابه الكبير في القراءات: "قرأ عليّ أعرابيّ بالحَرم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طِيبى لهم وحسن مآب) فقلت: طوبي، فقال: طيبي، فلما طال على قلت: طوطو قال: طي طي"(١). فلم يستطيع أن يثنى طبعه لأن لهجته القبلية في مثل طوبي مما وزنه فعلى تنطقه طيبي على وزن فعلى بكسر الفاء، فتقلب الواو ياء والضمة في أول الكلمة كسرة. ولم ينفع في الأعرابي لفت أبي حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبي. ولمثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم، تخفيفًا للمشقة عليهم في تلاوته. وفعلاً قرأوه بلهجاتهم، المرخص بها، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التي دونها العلماء.

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هي أفصح لغات العرب هو الذي ضلل المستشرقين، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التي عيَّنها اللغويون هي أقرب القبائل إلى قريش، ومن هنا جاءت فصاحتها، ولعل ذلك هو الذي جعل الطبري يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحراف السبعة التي أشار إليها الحديث النبوي. وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بُعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين، وفي القرآن الكريم نفسه: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش، وما دام المستشرقون يسلمون بأنه نزل بالفصحى، مع استثنائنا لفولرز وأضرابه، فإن هذه الفصحى إذن هي نفس لغة قريش التي لم يكن بها عوج من لغات أو لهجات شاذة كالعنعنة والكشكشة وكسر أول المضارع.

وربما كان من الأسباب التي ضللت المستشرقين أيضًا ودفعتهم عن محجة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية منحازين عن

---

(١) الخصائص لابن جني بتحقيق محمد على النجار (طبع دار الكتب المصرية) ١/ ٧٥-٧٦.

قريش، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أعاجم كثيرون في الإسلام وأن الفصحى فيها في أثناء القرن الثاني قرن جمع اللغة وتدوينها دخلتها شوائب من الأعاجم والموالي الذين كثروا فيها كثرة مفرطة. ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التي كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها. وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم عُلْيا هوازن وسفلي تميم وأسد وكنانة وهذيل. ويوضح أبو نصر الفارابي السبب في أنهم اقتصروا على تلك القبائل في جمع اللغة فيقول: "والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البراري ممن كان يسن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد وعُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[1]".

فاللغويون في القرن الثاني حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتهم إنما كانوا يتحرون الينابيع التي لا تزال نقية صافية، وليس في عملهم ما يشكك أى تشكيك في لغة مكة في أثناء العصر الجاهلي وفترة نزول القرآن الكريم، فقد التمسوا بغيتهم في القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس. ومن المؤكد أن الفوارق في الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوبًا أو شرقًا أو شمالاً. على

---

(١) المزهر ١/ ٢١١.

أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصورها، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلي على إذاعة اللهجة المكية في قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم.

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي، بل منذ أوائله، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظم بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم، والتي سُميت بعد بالفصحى، فقد كانوا يشعرون بروعتها، فاندفعوا يحاكونها، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية. ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام، فقد أقبل العرب في كل مكان شمالاً وجنوبًا على الارتشاف من أفاويق لغته، وقد أخذ يعممها لا في أنحاء الجزيرة القاصية وحدها، بل في كل بلد إسلامي شرقًا وغربًا، فإذا أعلامها تخفق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسي.